13 me Année No. 614

Lundi - 9 - 4 - 1945

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

٨٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٦١٤ «القاهرة فى يوم الإثنين ٢٥ ربيع الآخر سنة ١٣٦٤ — ٩ أبريل سنة ١٩٤٥» السنة الثالثة عشرة

الرصـــافى وأغا خان

أو

الزعيم الأدبى والزعيم الدينى

لك الله يا ابن آدم ، ما أغمض سر الطبيعة فيك ! تزعم أن فيك عقلا وأنت تتبع هواك ، وأن لك ديناً وأنت تعبد دنياك ، وأن عندك علماً وأنت تجهل نفسك !

ما هذا الذى ترى من خذلان المنطق لك ، وإسراف الرأى عليك ؟ تعرف الله وتفسق عن طاعته ، وتخلق الصنم وتخلص فى عبادته ، ثم تقدس الجرائم باسم العدل ، وتعتقد الأباطيل باسم العقل ، وتفسد قوانين السماء وتقول إنه الشيطان ، وما الشيطان إلا نفسك ؛ وتزيف طبائع الأشياء وتقول إنه الحظ ، وما الحظ إلا عملك !

إن من عملك لا من عبث الحظ أن يكون فى بيتك الكلب يقلد الذهب ، ويتوسد الحرير ، ويتبنأ اللحم ، وفى جوارك الإنسان يفضح جسده العُرّى ، ويلحس كبدَه الجوع ، ويقض مضجعه الهم

وإن من هواك لا من نزغ الشيطان أن تلح على أخيك بالأثرة والحرمان ثم ترثى لحالته ؛ وإذا كان من عمل الشيطان أن تقتل القتيل فليس من عمله أن تمشى فى جنازته ؟

فى الأسبوع الذى كان الرصافى شاعر العربية يعالج فيه آلام المرض ، ويكابد غصص الموت ، على الفراش القلق ، فى المضجع الموحش ، وكل ما يملكه من حياته الطويلة العريضة أسماله البدوية وأشعاره المخطوطة ، فى ذلك الأسبوع نفسه كان أغا خان زعيم الاسماعيلية يقعد فى كفة الميزان المأثور المشهور كما ترى ، وبإزائه فى الكفة الأخرى مائة

أغا خان فى الميزان

كيلو من سبائك الذهب المصفى ؛ هى مثقال الزعيم العظيم فى هذا العام ، خرج له عنها أتباعه فى الهند وفى غير الهند ، ونفوسهم راضية ، وقلوبهم مطمئنة !

إى والله ! مائة كيلو من الإبريز الخالص ، هى ضريبة العقيدة يقدمها المؤمنون المخبتون كل سنة إلى أميرهم القدس ، ورقابهم من الجلالة خواضع ، وعيونهم من الهيبة نواكس ، فيتعطف صاحب السمو بأخذها ، ليطهرهم بها ، ويزكيهم لأجلها ، فى حلبات السباق ، وخلوات العشاق ، ومعابد الحب ، على البحيرات الناعمة بالنعيم ، والجبال الباسمة بالجمال ، والشواطئ المائجة بالفتنة

الحياة الروحية بسببه ، فما بالهم تركوه يكتب فى وصيته الأخيرة هذه الفقرات التى تستدر الشؤون وترمض الجوانح :

« كل ما كتبته من نظم ونثر لم أجعل هدفى منه منفعتى الشخصية ، وإنما قصدت به خدمة المجتمع الذى عشت فيه ، والقوم الذين أنا منهم ونشأت بينهم ، لذلك لم أوفق إلى شىء فى حياتى يسمى بالرفاهية والسعادة فى الحياة ... لا أملك شيئاً سوى فراشى الذى أنام فيه ، وثيابى التى ألبسها : وكل ما عدا ذلك من الأثاث الذى فى مسكنى ليس لى ، بل هو مال أهله الذين يسا كنونى ... »(١)

أين كان ذوو النفوس الشاعرة القادرة من أتباع الرصافى حين أفرط عليه إباؤه وكبرياؤه ، فانطوى على نفسه يهدهد آماله بالصبر ، ويحدر آلامه بالشراب ، وروحه الوثاب يبتغى انبثاق النور ، وأمله الطماح يتقلص تقلص الظل ؟ لو شاء الرصافى أن يهاوى السلطان ، ويعالق الحكومة ، ويناقق الشعب ، لعاش أرغد العيش وبلغ أرقى المناصب ؛ ولكنه آثر الحرية على الرق ، واستحب الصراحة على الرياء ، فذهب شهيد كرامته وعفته .

ستقول إن الزعيم أغا خان كذلك صريح حر ، وإن صراحته السافرة وحريته المطلقة لم تبغيا عليه فى قومه ، ولم تجرّا إلى الكلام فى صلاته وصومه . والجواب أن أتباع الزعيم الدينى يصورونه فى نفوسهم بصورة العقيدة التى يدينون بها ، ويجعلون هيكله المادى رمزاً لهذه الصورة . ولهذا الرمز ظاهر يراه الأوزاع ، وباطن يستأثر بعلمه الأتباع ؛ فهم يسددون مايبصرون من زينه ، ويؤولون مايسمعون من باطله ، ويُسبلون على عمله المريب مايسبله الصوفيون من القداسة على الطبل والدف والناى والصنج ، فتصبح هذه الآلات فى أيديهم غيرها فى أيدى القيان والمُجّان ، وهى فى نظر الناس لا تختلف فى شىء عنها . قل إنها الجهالة أو السذاجة أو اللاهة ، فلن يقدح ما تقول فى الحقيقة ، ولن يغير من الواقع .

أما أتباع الزعيم الأدبى فإنهم يتخذون صورته من فنه وروحه ؛ فلصورته فى كل ذهن شكل مختلف ، وفى كل قلب أثر خاص وطبيعة هذه الصورة أو تلك الصور مشتقة من طبيعة الفن : تتضح تارة وتبهم تارة ، وتختفى حيناً وتلوح حيناً ، على حسب استعداد النفوس لتقبل الجمال الفنى حالا على حال ، ووقتاً بعد وقت . لذلك كانت عقيدة هؤلاء الأتباع فى زعيمهم كالعَرَض المنفك : تزول ثم تؤول . فإذا زالت نسوه كما ينسون السرور والحزن واللذة والألم ؛ وإذا آلت تعهوه كما يسمعون البليل على فنن الدوحة ، يطربون لشدوه ويعجبون بريشه ، ثم لا يعنيهم بعد ذلك أيجد الحَب والعش ، أم يجد الفخ والقفص .

وكذلك شأن أصحاب السلطان وأرباب الحكم مع رجال الأدب ، يقتبسون من عقولهم النور إذا أظلمت الخطوب ، ويستمدون من نفوسهم اللهب إذا خمدت العزائم ، حتى إذا استوثق لهم الأمر ، وتنازعوا الغار ، وتقاسموا الفىء ، أنكروا مابذل الأدباء ، وقالوا بلهجة الساخر البطر : وماذا صنع هؤلاء ؟ لقد قالوا وإن الكلام طبع ، وكتبوا وإن المداد رخيص ! ذلك إلى أن أكثر عشاق الأدب مفاليك لا يملكون لأربابه إلا الدعاء فى الحياة ، وإلا الرثاء فى الموت ! وإذا كان لدى بعضهم فضل من القوت لم يجد فى نفسه من سلطان العقيدة ما يحمله على المواساة به ؛ وذلك هو الفرق بين العقيدة الأدبية والعقيدة الدينية . فالعقيدة الدينية سلبية لا تتجاوز الإعجاب بالكلام والإنفاق من الكلام ؛ فإذا وجدت من يبذل فى سبيلها المال كان ذلك قطماً للسان الهاجى ، أو شراء لضمير المادح ، أو تزييفاً لصورة الحق ، وليس فى مثل هذا البذل كسب للأدب ولا نفع للأديب . ولكن العقيدة الدينية إيجابية تقوم على إعلان الفكر بالشعيرة ، وتمثيل المعنى بالرمز ، وتحقيق النية بالعمل . والسلطان الروحى فيها قاهر ، والأثر المادى عليها ظاهر . وحسبك منها الزكوات والصدقات والأضاحى والنذور ؛ ففى بعض أولئك للزعيم الدينى ذهب وميزان ، ومدد وسلطان ، وقصور ورَآسة ، ثم ضريح وقداسة !

* * *

حظك يا معروف هو حظ الأديب منذ كان فى الناس أدباء وفى الأرض أدب ! عوت أمثالك شرَقاً بالبؤس ، كما عوت أمثال أغا خان غرقاً فى النعمة ! فلو أن ربك حقق لك ما كان يرجوه شيخك الألوسى من رسوخ قدمك فى الدين ، وعلو منزلتك فى التصوف ، إذن لخلفته فى الزعامة الدينية ، ولبلغت من (طريقتك) ما بلغ أغا خان فى الدنيا ، ولنلت من (صوفيتك) ما نال معروف الكرخى فى الآخرة .

أحمد حسن الزيات

(١) إقرأ نص الوصية كاملة فى البريد الأدبى .